كشف القناع

رواية

للكاتبة القصصية كاترين ماتسفيلد

١٨٨٨ ـ ١٩٢٣

ترجمة الدكتور زاخر غبريال

أيمكن ان تتسلل الكآبة الى عين انسان من بين نسمات هذا الصباح المشرق الجميل ؟؟ كل عين ـ هكذا سبح الخيال بادنا ـ تشرق باليهجة ماعدا عينيها ، وانفرجت أمام ناظريها نوافذ كل بيت في المدينة عن آخرها ، وتهادى اليها من كل نافذة غناء أوتار قيثارة ، وامتدت الأيدي تتعانق ، ثم ينفرط عقدها ، واهتزت أشجار الحدائق تحت أشعة الشمس الدافئة ، مشدى بأزهار الربيع ، وتهامس الصغار في الشوارع صغيرا ، وتردد في الأفق نباح الكلاب ، بينما الناس يروحون ويغدون ... حول مدينة حنيفة . يخيل للرائي ، أنها بعد لحظات ستطلق قهقهة وعدوا .

ربما لم يكن في ذلك الوقت انسان في الوجود يحمل هما ، حتى **ادنا** نفسها ، لم تكن تسعة الى الدرجة التي كانت تشعر بها ، **وهل من السهل على المرء أن يشعر بالتعاسة ، وهو لم يتجاوز من العمر ثمانية عشر ربيعا ؟** وعلى الأخص اذا كان في مثل ما حظيت به **ادنا** من جمال ، وما انطلق في خديها وشفتيها وعينيها من صحة وشباب ونضارة !! يزينها جميعا جلباب أزرق فرنسي الطراز ، سارت تخطر فيه ، وقبعة تتوهج بزهور العنبر ، ولم يكن ليقلل من تلك البهجة التي لفتها بعلالة مشرقة ، ما انبعث من كآبة من كتاب حملته في يدها ، يضمه صفحتان سوداوان من الجلد ، فقد كانت هذه الكآبة وليدة الصدفة ليس الا ، لقد كانت صفحاه من صنع مكتبة الجامعة ، التي انتدبتها ادنا مبررا للخروج من المنزل ، لتفكر مليا في حياتها ، وتتدبر موقفها وتحزم رأيها في أمر ما .

وفجأة ودون سابق انذار ، حدث

للأسف ما لم يكن في الحسبان ، فبينما هي جالسة في المسرح ، جنبا الى جنب مع **جيمي** ، وقد مدت اليه يدها بعلبة حلوى ، ليأخذ منها ما يشاء ، بعد أن التهمت هي قطعة منها ، في هذه اللحظة الحاسمة ، خفق قلبها بحب أحد الممثلين ، لقد خفق قلبها بحب .

شعور لم تكن لتحلم به من قبل ،

ولم يكن شعورا لديدا ، ولم يكن شعورا يبعث في القلب نشوة ، الا اذا راق لنا أن نعتبر الحب بلا رجاء واليأس والمرارة والتعاسة ، من أحاسيس النشوة ، ثم هاهو ذا شـــعور آخر قد أخذ يدب في قلبها ... لو أن ذلك الممثل قابلها على قارعة الطريق ، في الوقت الذي يبحث فيه جيمي عن عربة تقلهما الى منزلهما ، فانها لن تتردد ، عند أول اشـارة أو ايماءة منه ، في أن تتبعه ، ودون أن تلقي بالا الى جيمي أو أبيها أو أمها أو حياتها العـــائلية السعيدة وأصدقائها الكثيرين ، لن تتردد في أن تتبعه الى أية بقعة من بقاع الارض .

لقد بدأت التمثيلية بداية طيبـــة ، يشيع فيها المرح والبهجة ، كان ذلك في الفترة التي تناولت فيها قطعة الحلوى ، ثم أصيب البطل بفقد بصره ، فكانت لحظة رهيبـــة !! بكت ادنا كثـــيرا ، واستعانت بمنديل جيمي لتهـــدئة مشاعرها ، لا لأنها كانت تخشى البكاء ، فالجميع من حولها يجهشون بالبكاء ، حتى الرجال منهم ، أخذت أنوفهم ترسل ـ لفرط البكاء ـ صفيرا مزعجا ، وهم يحاولون اخفاء عيونهم وراء أيديهم ، بدل أن يتطلعوا بها الى مايجـرى على المسرح ، واما جيمي فلم تكتمل ـ لحسن الحظ ـ عيـــناه بدمع ، مما جعل من السهل عليه أن يعيرها منديله ، وقد أخذ يضغط على يدها ، وهو يهمس لها « خففي عنك يا عزيزتي » ، وفي تلك اللحظة تناولت ـ ارضاء له ـ آخر قطعة من الحلوى ، ثم تناولته العلبة مرة أخرى ، ومرت لحظات مروعة ، ظهر فيها البطل وحيدا على المسرح في وقت الغسق في غـــرفة خـــاوية ، بينما كانت فرقة موسيقية تعزف خارجها ألحانا شجية ، ومن الشـــارع كانت تسمع عبـــارات الاعجاب بألحانها ، لقد استطاع البطل بعد جهد جهيد ، أن يجســد الطريق الى الـــــافذة ، ثم وقف ويداه ممسكتان بالستارة ، بينما انسكب شعاع ، شعاع واحد ، انسكب في اشراقة على وجهه ، وقد بدا فاقد البصر ، بينما أخذ صوت الموســـيقى يتلاشى شيئا فشيئا ، وهو يتباعد عن المكان .

لقد كان ذلك ـ حقا ... لقد كان قطعـــا ـ أوه ، لقد كان أعظم ـ **كان مجرد** ـ لقد بدأت ادنا تدرك حقا منذ تلك اللحظة ، أن الحيـــاة لا يمكن أن تسير على نمط واحد ، سحبت يدها من بين يدي جيمي ، ثم أسندت رأسها الى الوراء ، وأقفلت ـ الى الأبد ـ علبـــة الحلوى ، كان ذلك معناه أن الحب قد فتح ـ آخر الأمر ـ باب قلبها .

لقد ظلت ادنا وجيمي خطيبين لمـــدة عـــام ، ولكنهـــما كانا يعلمان أنهما سيصبحان ، في يوم من الأيام ، زوجين منذ أن **وطأت** أقدامهما أرض الحدائق ، وهما لما يزالا برعمين صغيرين ، تحت رعاية مربيتهما ، يتوســـدان العشب ويأكلان الحلوى معا ، ولقد عرف الجميع ذلك ، ولقد لاذنا أن تطـــوق أصـــبعها طول حياتهما المدرسية بخاتم يبدو كأنه خاتم خطوبة ، وظل كل منهما وفيا للآخر حتى هذه اللحظة .

كل ذلك أصـــبح الآن عند ادنا في عـــداد الذكريات ، ولـــكن جيمي لم يساوره نفس الشعور ، الأمر الذي أدهل ادنا ، وانفرجت شفتاها عن ابتســـامة حزينة ، حـــين عرجت على حدائق دير « القلب المقدس » ، وساقتها قدماها الى

طريق يتوسطها ، ألم يكن من الأفضل لحيمى أن يعرف ذلك الآن بدل أن يعرفه بعد الزواج ، فقد يمكنه الآن أن يختار هذه المحنة ... لا ... لا داعى للخداع ... لن يمكنه أن يجتسارها ... ان حياته لا شك حطام ، ولكنه كان شابا ، هكذا يقول النـــاس ... هكذا يقول الزمن ... ربما يستطيع الزمن أن يفعل شيئا ، ولكن ذلك لن يكون الا صنيعا ... ربما فى المستقبل ، حسبى يحث الزمن به الخطى ، فيطوى من العـــمر أربعين عاما ، ربما يمكنه أن ينظر للأمر نظرة متزنة هادئة ، وأما هى ... فماذا يخبىء لها المستقبل فى ثناياه ؟؟

وصلت ادنا الآن الى نهاية الطريق ، وهناك تحت شجرة بدأت بعض أوراقها الخضراء تشق طريقها الى الحياة ، وتدلى من فروعها بعض باقات صغيرة من زهور بيضاء ، هناك أخذت لهـــا مكانا فوق مقعد صغير ، ثم أخذت تسرح الطرف الى الدير ، واستهواها منظر الحمام يداعب بعضه بعضا ، بينما استطاعت أذناها أن تتصيدا آهات راهبة من راهبات الدير ، وهى تقوم بدرس فى الغناء : «يا اسفاه» قالت الأخت أخنس ، ثم أخذت آهتها تتردد بين جنبات الدير .

اذا لم تتزوج ادنا بحيمى فلن تتزوج أبدا ، أما ذلك الرجل الذى خفق قلبها بحبه ، ذلك الممثل الذائع الصيت ، فقد أدركت ادنا بفطنتها أنه لن يكون لها ، شعور غريب ، فلم تكن هى نفسها راغبة فى ذلك ، لقد كان حبهـــا أقـــوى من الزواج ، وكان عليهـــا أن تخوضه فى صمت ... كان عليهـــا أن تتعذب ، هكذا صور لها الخيال .

« ولكن ... ألا يمكن يا ادنا ، هكذا صاح جيمى ، ألا يمكن أن تعد لى ... أما من أمل ؟؟ » .

أى ألم كان يعتصر قلبها حين وجدت نفسها وجها لوجه أمام الواقع ، لقد كان عليها أن تقولهـــا صريحة ، أن تقول « لا » .

وأخذت ادنا رأسها ، وسقطت فوق حجرها زهرة صغيرة ، وسمعت صوت الأخت أخنس تقول « أواه ... كلا » وترددت أصداء الآهة بين جنبات الدير .

فى تلك اللحظة انكشف القنـاع عن المستقبل أمامها ، مثل كل شىء أمـــام عينيها ... أذهلتها المفاجأة ... أخذت أنفاسها تضطرب ... ولكن لم ؟؟ أى عيار على ذلك ؟ سوف تدخل الدير ... لقد بذل والداها ما بذلا ليقصياها عنه ، وحيمى لا يطيق مجرد التفكير فى ذلك ، لم لا يســـتطيع أحد أن يفهمهـــا ؟؟ لم يسخرون من حولها الآلام؟؟ يا للقسوة!! القســـوة الصـــارخة !! لابد أن تدخل الدير ، بعد أن ينزل الستار على المشهد الأخير ، بعد أن تتخلص من جواهرها وكل ما ملكت يداها ، تلقى بها جميعا الى أصدقائها ، ولكن رويدا ... سيشهد ميناء «ولن» آخر امسيته فى المشهد . عندما تهم الى الدير ، سوف تبعث اليه بشخص غريب ، يحمـــل صندوقا مليئا بأزهار بيضاء بلا بطاقة ، بلا اســـم ، لا شىء غير آخر صورة لادنا ، تلفهـــا بمنديل أبيض ، وتكتب اسفلها .

بعضت يدى من العالم وبعض العالم يده منى » .

أخذت ادنا مكانها تحت الأشجار ، وقد أطبق الصمت عليها ، بينما راحت

تطبق بأصابعها على الكتاب الأسود كأنه كتاب صلواتها ، أجل ... ستختار لها اسم الأخت أنجيلا ، وها هو شعرها الجميل ، يقص خصلة خصلة ، وجيمي ترى هل نجد السبيل الى ارسال باقة منه اليه ؟؟ غدا سوف تسير الأخت أنجيلا في عباءة زرقاء من الدير الى المعبد ، ومن المعبد الى الدير ، يعصب رأسها شريط أبيض ، ويختلج في نظراتها بريق عجيب ، لا يمت الى عالم أرضنا ... بريق في عينيها الحزينتين ، بريق ابتسامة تحيي بها الاطفال الصغار حين يهرعون اليها ... قديسة !! ستتجاوب أصداء هذه الكلمة حواليها ، وهي تذرع الدهاليز التي انتشرت فيها رائحة الشمع ... قديسة !! وسوف ينصت الزائرون الى القصص التي تحكي عن الراهبة التي يعبق صوتها محلقا فوق ماعداه من الأصوات ، سوف ينصتون الى قصص تحكي عن جمالها ، شبابها ، مأساة حبها : « هنا ... في هذه المدينة يعيش رجل ذهبت حياته حطاما ... »

تسللت نحلة كبيرة ، حصنتها الطبيعة بلون ذهبي ، الى نرجسة ... انشدت تلك الزهرة الرقيقة ... أخذت تتمايل ... انتفضت ... وحين ودعتها النحلة وحلقت بعيدا ، تمايلت الزهرة رغم ذلك ، كأنها تشوى ... يا للزهرة السعيدة ... لا تحمل هما !!

نظرت اليها الأخت أنجيلا ، ثم قالت : « لقد أقبل الشتاء » وها هي تسمع ذات امسية ، وهي مضطجعة في مقصورتها المقرورة ، صرخة ... ربما صعدها حيوان صغير سبيله ، فأخذ يتخبط في الحديقة ... ربما كان قطاة أو حملا أو شيئا من هذا القبيل ، تهب الراهبة الأرقة من فراشها ، في ثياب بيضاء ، ترتعش ولكنها غير وجلة ... تذهب الى الحديقة ، وتأتي بهذا الشيء ، ولكن في الصباح التالي ، حين يدق الجرس مؤذنا بصلاة الصباح ... اذا بالراهبة تصارع ـ وهي فاقدة الرشد ـ حمى عاتية ، لم تستطع أن تفيق منها ، وانتهى كل شيء في ثلاثة أيام ... انتهت الطقوس في المعبد ، ودفنت في ركن قصي من مدفنة خصصت للراهبات، فلترقد الأخت أنجيلا في سلام !!

حل المساء ، ها هما اثنان من الناس يتساندان وهما يتقدمان ببطء الى القبر ، ويحثوان أمامه ، ثم يتأوهان « ابنتنا ... وحيدتنا » ثم ها هو آخر يقبل ، وقد اتشح بثياب سوداء ، في خطوات بطيئة ، وما أن يصل الى القبر ويرفع قبعته السوداء ، حتى ترى ادنا ـ ويالهول ما ترى ـ شعره وقد وخطه المشيب ... أنت حيمي !! لقد سبق السيف العزل ... سبق السيف العزل ، ها هي الريح تعبث بالأشجار العارية في فناء المعبد ، بينما أخذت تنطلق منه صرخة مريرة مروعة .

سقط كتاب ادنا محدثا صوتا عندما ارتطم بالارض ، فهبت من مكانها مذعورة ، وقلبها يدق كالمطرقة بين صدرها ... أوه ياعزيزي ... لا ... لم يسبق السيف العزل ، مازال الأمل بكرا ، والأمر لا يعدو أن يكون مجرد خطأ ... حلم مرعج ما أبشع ذلك

الشـــعر الأبيض ! !أيمكن أن تكون قد ارتكبت هذه الحمـــــاقة ؟؟ لا ... لم تفعل ، سبحانك ربي ... يا للسعادة الفياضة ، انها الآن حرة طليقة ... في ريعان الشباب .. وليس في الكون من يعرف شيئا عن ذلك السر ، ولازالت في العمر فسحة لها ولحبيبي ، البيت الذي كانا يحلمان به ، يمكنهما الآن أن يبنياه ، وذلك الصبي الصغير وقف ـ وقد شد يديه وراء ظهره ـ يراقبهما وهما يزرعان الورود ، لازال ذلك الصبي أملا لم يمت، وأخته الصغيرة ، ... وعندما وصلت الى أخته الصـغيرة ، مدت يديهـــا في الفضـــاء ، كأنما تراءى لهـا أن الطفلة الصغيرة ، قادمة اليها على جنح الأثير ، ثم خذت تسرح الطرف الى الحديقة ، الى أغصان الأشجار ، الى تلك الحمائم ... زرقاء تسبح في ســـماء زرقاء ، والدير بنوافذه الضـــيقة ، أدركت الآن أخيرا ولأول مرة في حياتهـــا ـ فلم يعمرها مثل هذا الشـــعور من قبل ـ أدركت ما معنى أن يحقق قلب بحـــب ... بحب !!